فرسانٌ.. تلثِمُ القيود

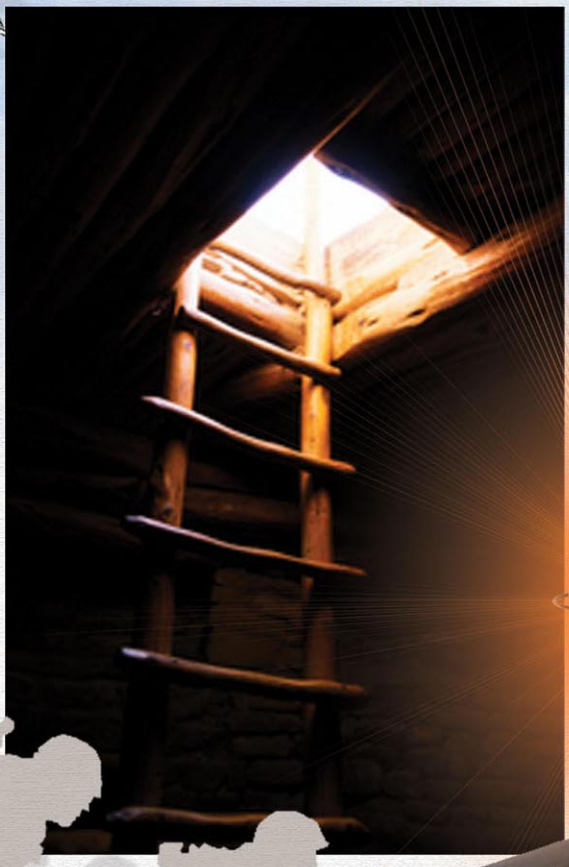

قصة الأسير المجاهد أحمد حكمت عبيد

أمراء النصر والتحرير

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

فرسانٌ..تلثِمُ القيود

الكاتبة: فاطمة شوقي بيطار

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الاسلامية الثقافية

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧

- **القصة:** فرسانٌ.. تلثِمُ القيود.
- **قصة الأسير:** أحمد عبيد.

إســـم الأب: حكمت.
إســـم الأم: فاطمة قاووق.
مواليـــــد: ٣ آذار ١٩٦٨ ـ جبشيت.
تاريخ الأسر: ٢٨ تموز ١٩٨٩ ـ جبشيت
منزل فضيلة الشيخ عبد الكريم عبيد.
تاريخ التحرر: ١٩٩١/١٢/٢٦.

- **الكـــاتبة:** فاطمة شوقي بيطار.
- **الدرجة:** نالت الدرجة الثالثة في المسابقة الثانية لأفضل قصة أسير التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب اللّه وبلدية الغبيري.
- **الناشر:** جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة:** الاولى أيار ٢٠٠٣م ـ ربيع الأول ١٤٢٤هـ. على نفقة بلدية الغبيري.

أمراء النصر والتحرير

قصة الأسير المجاهد أحمد حكمت عبيد

الإهداء

إلى روحي الّتي بين جَنْبي والنور

السّاكن في عيني

إلى قاصِم شوكة المعْتدين إلى

سيدي ومولاي

صاحب القلب الأليم صاحب العصر

والزّمان «عج»

أرفَع كُتيّبي هذا...

المقدّمة:

أيّها العابر على تلك المعاقِل... قف هنيهة... دَعْ عبق القيد يحكي دمعةً انسَلَّت من بين جفونهم... وقلباً أقرحته الآه المدفونة في أوداجهم قف على الجرح ينشد أوجاع الزّمن مجداً وقوافي... أمام عمرٍ شدَّ برعمه نحو مرارة الأحزان وزجرات السّجان...

قف على أعتاب زنازينهم واذرف عَبْرتَكَ بصمتٍ، ثمّ انحِ بجلالٍ، وأدِّ التحيّة... لصدورهم المثخنة بالآلام... وقدس جباههم السّاجدة

لعيون العاشقين... وأفواه العابدين

لقلوب المتحيّرين... وأنامل الوالهين

لفرسانٍ أسرجوا للّه خيلهم...

وأبَوْا إلاّ أن تكون أرواحهم معلّقةً بالمحلّ الأعلى..

فكانوا للّه نِعْمَ الرّجال، وخيرة من سار على خطى الأبْرار.

لتِلك الهامات... يترنّم عشقي، وأسكب مدادي ليخطّ لحن عذاباتهم... ويلثم ساحات أيّامهم.

فاطِمة...

وشبَّ لظى القيد:

كان ليلُ الثامن والعشرين من تمّوز لِعام ١٩٨٩، حين أسدلت الوحشة ستارها على ذاك المنحنى من جبشيت،

بعد أن خلت الشّوارع وهدأت الأصوات إلاّ من نعيق البوم ونقيق الضفادع... وتهادى أزيز الرّصاص من بعيد مصدره مواقع الأعداء...

عيونهم وحدها... كانت تنتظر الليل لِتركب مَتْنَه... وتعرّج إلى عشّها حيث يحلو اللوذ بالحبيب والأنس بالجّليس، كان هو عمامتنا الأسيرة فضيلة الشيخ عبد الكريم عبيد... العالِمُ والمعلّم... وبلَسم الآلام والنسمة الباردة تُجفف عرق الأحزان...فاتّخذوه محطّاً للرّحال.... وأملاً إذا اشتدّت الملمّات... وتسارع إليهم غدرُ اللئام.

وشاء القدرُ، أن ينسُج آلامهم، في آخرِ سهراتِ الحرية، فأخذ النّسيم يداعب سُمْرتهم الورديّة، لكأنّها وحدها الطّبيعة تتهيّأ للوداع...

ومن يدري ربّما يطول ويطول اللّقاء...

إلتفّوا مُتجاورين... وأخذت أكواب الشّاي تترنّح بين أيديهم... يُصعِدون مع لَهَبَها تسابيح أنفاسهم وسَمَرَ عذاباتهم... وحديث يراودِ هذا ويستدعي انتباه ذاك... ويبقى الشّيخ سيّد المجلس والهدف واحد: «هيهات منّا الذّلة». أخذت تقطع رشفاتهم تأوّهات لشهيد كان بالأمس بينهم وآخر رسَمَ ابتسامته على شواطىء قلوبهم، فَرَسَتْ تخلّد الحنين.. جميعهم رحلوا وبقينا نحن... وتتهاوى الأمنيات: «ليتنا كنّا معهم»، «فازوا واللّه

فوزاً عظيماً»، «اللهم ارزقنا الشّهادة»، «لا ينالها إلاّ كلّ ذو حظٍ عظيم»... وتتعدّد مجاري الحديث والمنبعُ واحد: قلوب مصقولة بالإيمان، «رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا» كانت تمرّ اللحظات بسرعة البرق من دون أن يشعروا، وها الهزيعُ الأوّل من الليل ينقضي ولا يحجبهم عن الفجر سوى ساعات...

دقّت السّاعة الواحدة والنّصف وكانت معها البداية... وشبّ لظى القيد...

مجموعة مِن الكومندوس الصهيوني تغزو وبشكل مفاجىء أرجاء المنزل وتعمل جاهِدَة لأسر الشيخ مع من كان معه وهما هاشم فحص وأحمد عبيد، فيلجأ العدو إلى استخدام أبر التخدير ووسائل التّنويم (وضع المخدّر على القطن ودسّه في الوجه) وبذلك تمّ نقل الأسرى بواسطة الحمّالات إلى حيث كانت تنتظر الطائرة المروحية في وادٍ يقع بين حاروف والدوير وجبشيت واستسلم العدو للمكر والطّعن معتقداً بذلك أنّه أحسن توجيه الضّربة إلى خاصرة المقاومة... لكن أنّى له هذا وموقفهم ظلّ السّلاح كما قال أميرهم راغب وصدى صوت روح اللّه الموسوي الخميني «قده» ظلّ يرنّ أسماعهم: «نحن فخورون أنّ أئمتنا المعصومين صلوات اللّه وسلامه عليهم كابدوا السّجن والإبعاد في سبيل

إعلاء الدّين الإسلامي وفي سبيل تطبيق القرآن الكريم الّذي يعتبر تشكيل الحكومة الإسلامية أحد أبعاده واستشهدوا في النهاية في طريق اسقاط الحكومات الجائرة وطواغيت زمانهم». أوليس هو عهدٍ من المولى «عزّ وجلّ» بأن ينصر أولياءه: ﴿واللَّه أعلم بأعدائكم وكفى باللَّه وليّاً وكفى باللَّه نصيراً﴾ (النساء: ٤٥).

أولى التحقيقات:

... وساروا بنا إلى حيث نجهل خفايا الدّهر وما خبأته أيدي الغدر والجور ولم نع ما يدور حولنا تماماً إلاّ ونحن هناك... في معتقل الصّرفند ويدُ الجندي تقذفني إلى غرفة التحقيق بعد أن كان الكيس في رأسي يخنقني وأثقال الحديد في يدي. وبعد أن تمّ انتزاع الكيس رأيتُ كلّ شيء أمامي كالضّباب من أثر المخدّر. ولم أكن في وعي تام حين أحسست بوجود آلة التسجيل أمامي فحاولت أن أظبط تركيزي وأهيّىء جواباً قبلَ أن يَزَلّ اللّسان...

وتنهالُ الأسئلة كزخّ المطر، ما اسمك؟ وماذا تعمل؟ وما هي علاقتك بالشيخ؟

- اسمي أحمد عبيدْ، وأعمل في العمارة.

- حقّاً!؟ أوَلَسْت في المقاومة.

- لا، لسْتُ مع المقاومة.

- قُلْ الحقيقة و«خلّينا رايقين أحلى ما نستعمل القوّة».

- «هيدي هيي الحقيقة».

- إذن، ماذا كنت تفعل عند الشّيخ؟

- كنت أحلّ مشكلة، والشّيخ ابن عمّي.

- الأفضل لك أن تعترف وإلاّ كان الموت مصيرك الحتمي.

هكذا قال المحقق فأجبته بكلّ جرأة «مُناي أن أموت على أيديكم وأنال الشّهادة».

كانت الأسئلة بسيطة نوعاً ما وخفيفة، وكلّما ازددت إصراراً على موقفي تلقّيت المزيد من الشتم والضربات، حتّى يئس المحقق بعد حوالي السّت ساعات من تكرار الأسئلة والشّتم والكفر... ولمّا لم يحقق أي نتيجة أمر جنديين من حوله برميي في الزنزانة...

أسرار خلف القضبان:

... وأنزلوني قعر زنزانتي... كان الظّلام دامساً حتّى خيّل لي نزول القبر وربما كان الأخير أوسع بكثير، زنزانة تحت الأرض لا تتجاوز مساحتها المتر المربع الواحد، مطليّة باللون الأسود، لا تقدر حتّى على رؤية إصبع يدك في وضح النهار... عالمٌ غريب وبعيد تتذوق فيه الألم أفناناً وألواناً...

أرسلت يدي فوق وجهي لأجد الدّم المتجمّد على عيني وكتفي نتيجة الضّرب المبرح على رأسي فقلت في نفسي «أن أتعذّب أنا خيرٌ من أن أسوق غيري إلى التهلكة» والأيام كفيلة بأن تشفي كلّ هذه الجراحات... قلت هذا وتدحرجت دمعتي على قلبي المجروح فزادته وجعاً وألماً إلهي... شدّني إليك... ضمّني تحت جناحك الّذي أبى أن يترك مظلوماً... يا مؤنِسَ الخائفين... آنِس وحشتي بين القومِ الظالمين إنكَ خير حافظ ونِعم الوكيل... وتأخذني إغفاءتي عسى المنام يخفف من وطأة الجراح.

وأوقدتُ العزيمة:

... ويعود الكيس مجدداً إلى رأسي والأغلال بين يدي، وقادوني في ممر أخذت بِعدّ الأبواب الكهربائية التي كانت تُفتح في داخله ويعاد إقفال كلّ باب بعد الخروج منه فكانت عشرة أبواب... ووصلتُ إلى غرفة التحقيق مع الجنديين لأجد محققاً آخر بادرني بالقول:

- «إنتَ إذا قلت إنّك تنظيمي، خلص منقفّل الملف».

فأجبته:

- أنا مش تنظيمي وما بعرف أي شيء عن المقاومة.
- وشو كنت عمتِعمل عند الشيخ.
- كنت أحلّ مشكلة.

- ولِمَ لم تعد إلى منزلك.

- بيتي بعيد والوقت متأخّر من الليل.

وإذا بالخرائط تنصبّ أمامي ويفتح إحداها ليدلّني على منزل الشيخ ومنزلي ويقول لي بأنّ المسافة لا تزيد عن الخمس دقائق.

قلتُ خمس دقائق في السّيارة أمّا سيراً على الأقدام فتأخذ حوالي النّصف ساعة. ونحنُ من عاداتنا أنه إذا ما تأخّرنا عند الأقارب نمنا في منزلهم.

وبدأ عرق المحقق يتصبّب من جام الغضب، فقام من مكانه وأخرج قارورة مليئة بالأسيد وبدأ بسكبها على جسدي.. كنتُ أشعر أنّ لحمي وكلّ أعضائي تتمزّق من الإحتراق والألم وعلى الرغم من ذلك لم أتزحزح قيد أنملة.

فأتذكر جسداً لطالما كان طعمة للنّبال والرماح وحوافر الخيول وأعود لأصمد من جديد مهما تفانوا في تعذيبي وأذيّتي.

وهكذا... كانت تتراوح الجلسات ما بين الست والثماني عشر ساعة متواصلة يتناوب خلالها المحققون الذين عرفت فيما بعد أسماءهم فكان رئيسهم يُعرف بـ«سيمون» واسمه الأصلي ميشال وقد سبق له أن كان مسؤولاً لمنطقة النبطية إبّان الإجتياح الإسرائيلي. والآخر يعرف بجورج والثالث بـ«سامي» وهكذا إذا ما

يئسوا من الأسير وباءت أساليبهم بالفشل عادوا لِرميه في الزنزانة.

جنباً إلى جنب

بعدها جاؤوا بهاشم فحص ووضعوه في زنزانتي. وصرنا نحن الإثنين جنباً إلى جنب.

وأدركت في قرارة نفسي الهدف الذي يبغونه، وأيقنت أنّ كلمة واحدة يجرّها حديث والحديث يأخذنا إلى التفاصيل الّتي من شأنها أن تخلّد بنا في هذه الزنازين لذلك قلت لهاشم أنّي مُتعب وأعرضت عن الحديث معه بعد إصراره على السّهر إذ أنّ الليل، كان في بداياته بعد نهاية التحقيق. وتظاهرت بأنّني نائم وأخمدت أنفاسي لأسمع صدى دعسات الجنود في الممر ومحاولات تنصّتهم.

ولمّا لم يحققوا الهدف جاؤوا بعد حوالي النّصف ساعة ليصطحبوا هاشم وأبقى أنتظر مصيري المجهول... لا... وكيف يجهل مصيره من كانت بدايته في خنادق مرهبة...

ثمّ جاؤوا بفضيلة الشيخ عبد الكريم ووضعوه في الزنزانة المقابلة تفصّلنا الأبواب الحديدية فأخذ فضيلته بمناداتي... لم أنبس ببنت شفة... خوفاً من إعادة التحقيق والعودة إلى نقطة الصّفر...

ثم جاء أحد الجنود ليضع أمامي صحن الطّعام فقلتُ له بصوت رفيع جداً أنا أحمد عبيد وبصحّة جيّدة وأرفع من صوتي كي يتمكّن سماحة الشّيخ من معرفة حالي والإطمئنان. بعدها توقف عن مناداتي... وفهمت الطيور مَنْطِقها رغم بعدُ الأوكار... كان ذاك الكلام هو الأخير... بيننا... وانقطع معه الوِصال...

حلمٌ...وصلاة:

مرّ أسبوعان على وجودي في هذه الزنزانة، لم أكن أعرف سَجَاها مِنْ ضُحاها وكنتُ قد فقدتُ خلالها لذّة الصلاة والمناجاة بين يدي خالِقي، فقد أوهنت جراحاتي قِواي وأضعفتها إلى حدّ كبير، فغافلتني آلامي عن هذه الفريضة، إضافةً إلى أنّي لا أعرف اتّجاه القبلة ولا حتّى الماء لأتوضّأ.

وإذا بي أرى في عالم الرؤيا شخصاً يأمرني بالصلاة فقلتُ له كيفَ أصلّي وزنزانتي خالية من نقطة الماء؟ قال: تيمّم وصلِّ ثمّ أخذ كفّي وبدأ بتعليمي كيفية التيمّم علماً أنّي كنتُ أدركها... واستفقتُ مذهولاً من نومي فتيممت وصلّيت بالإتجاهات الأربع وبقيت أصلّي على هذه الحالة لأنني لم أكن أعرف اتجاه القبلة آنذاك...

وبقي هذا الحلم عالقاً في ذاكرتي حتّى السّاعة..

تقـرأه روحي عنـد كلّ آذان لِتـسـتـيـقظ عـابدةً للواحـد القهّار...

رحلة مع العذاب:

عاماً ونصف... أعضّ على جرحي... في تلك الزنزانة ووحـشـة الغـربة... وتمرُّ السّاعـات فـأحـسـبـهـا سنيناً وسنين... أترقب الليل إن طلع الصّبـاح وأعـدّ سـاعـات النهار إنْ أدبر الليل... وربّما أخذتني إغفاءتي إلى صهوة حرّيتي بين صحبي وإخواني ودفء الحرية يبعث فينا ألوان الحـيـاة وضـحـكاتنا ونـفـحـات فـرحنا تملأ أرجـاء المكان...

وأفتح جفني... لا أهل ولا أصحاب... والصّقيع يلتهم مفاصلي كما لو رقّعت جلدي بالجليد وأيّام كانون تحت الأرض... غنيّة عن التّعريف.

كـان وحـده تعـالى مـؤنسي في وحـشـتي وكـالـئي في وحـدتي... لسـاني يلهج بحـبّـه «يا حـبـيـب قلوب الصّادقين... إن لم يكن بك عليّ سخط فلا أبالي...».

وأخـذت الأيّام تطوي بعـضـهـا... ووضـعـنـا الصـحّي والنّفسي يتـأزّم يوماً بعد يوم. لا سـيّـمـا وأنّه مُنعنا من رؤية الشمس إلاّ من ثقب صغير في سقف الزنزانة كان يدخله بصيص نور...

ناقوس الخطر:

هكذا... كان الوقتُ مُقَسّماً بين الزنزانة وغرفة التّحقيق والأسئلة تُعيد نفسها بل ربّما تتطوّر أحياناً... وجراحي على ما هي عليه دون مداواة ليستغلّوا من خلالها اعترافاتي... فلم يَكُن من طريقٍ أسلكه غيرَ الصّبر وممر غرفة التحقيق...

وفي هذه المرّة، كانت الأسئلة خطيرة نوعاً مّا وكنتُ أدرك جيّداً أنَّ أي كلمة حتماً تعيد التحقيق إلى بداياته وتنهار بي إلى أسفل سافلين.

ففي وقت كان أقصى ما يمكن أن تأخذه فترة التحقيق هو شهر واحد، استمرت التحقيقات معنا نحن الثلاثة فترة ستة أشهر. وكان محور الأسئلة في هذا التحقيق يدور حول المعلومات التي أعرفها عن المقاومة وقادة حزب اللّه؟ وما هي أخبار الجنديين الصهيونيين الذين اعتقلتهما المقاومة الإسلامية في عملية بيت ياحون؟ وأين يوجد الطيار رون آراد؟

ربّما تكون هذه الأسئلة من «العيار الثقيل» تستدعي الدّقّة والانتباه. نظرت في وجه المحقق، كنتُ أجِدُ في أثلامه كلج الفسق والظلم والفجور وأجبته بنبرة قاسية.

- «إنّ كلّ هذه التحقيقات لن تجدي معي نفعاً، فأنا ليست لي أي علاقة لا بالمقاومة ولا بالحزب».

- ألَمْ تخضع لعمليّات عسكرية في مدينة بعلبك؟

- لا.

- ولكنّ الشّيخ اعترف وقال أنّك مع المقاومة واليد اليُمنى له.

- أنا لا أصدّق هذا الكلام.

- إذن، أنتَ تُكَذِّب الشّيخ.

- بإمكانكم أن تأتوا به إلى هنا وليَعترف أمامي إن صحّت أقوالكم.

- حسناً، وماذا تعرف عن خطف الأميركي هيغنز؟

- من؟ للمرة الأولى أسمع باسمه! وقلت لكم أنّي لا أعرف شيئاً ولن تُحصّلوا من هذه التحقيقات سِوى إضاعة الوقت والكلام الفارغ...

كلامي هذا... طاير الشّر من عيني المحقق سامي بعدما وجد منّي كلّ هذا الصّمود رغم الضرب والشّتم والبصاق في وجهي وتهديده إياي بالموت مرّات عديدة وبعد أن جرحني بقوله «بيوعدوكن بالجنّة والسّجاد الأحمر».

لم يبقَ أسلوب من أساليب التعذيب إلاّ كان لي منه نصيبٌ... وهي في تطوّر دائم... فمِن رميي في غرفة الكِلاب إلى وضعي في زنزانة مطليّة باللون الأحمر مع إنارة حمراء قويّة جداً... إلى غرفة المسامير التي تتّسع فقط لجسمك وأي حركة صغيرة ستنبتُ المسمار عاجلاً في جلدِك...

وتعليقي بحبلٍ في السّقف مع رفع قدميّ عن الأرض إلى أجلٍ غير مسمّى!

ومهما طالت ساعات التعذيب... أعادوني آجلاً إلى زنزانتي... وقد أخذ منّي التّعب مأخذه، فأتّكىء على حافة الجدار مسدلاً دموعي على وجنتي... وأعود بالرحمن إلى سيّدي ومولاي الإمام السّجاد (ع) يوم كبّلوه بالأغلال في مجلس أشقى الأشقياء ووضعوا الجامعة في عنقه وكانت السّياط تلعب على منكبيه وهو البقية من حبيب اللّه محمد «ص» أستحضر هذا وأتساءل: من أكون أنا؟... وما هي هذه الأوجاع أمام أوجاعهم؟... ألم تبقَ آثار الضرب والعذاب على أجسادهم وهُمْ ممدّدون على سرير المغتَسَل؟

كانت هذه المحطّات تهوّن عليّ آلامي وتدفعني إلى الإلتزام بالصّبر وتقوية العزيمة فقريباً ما يبزغ الفجر من بين هذه الأغلال ويُوفّى الصّابرون أجورهم ﴿وما لنا ألاّ نتوكّل على اللّه وقد هدانا سبلنا ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا وعلى اللّه فليتوكّل المتوكّلون﴾ (إبراهيم/١٢).

أمنية واستجابة:

بَيْنَ القضبان... ذاكَ المكان الّذي تشهدُ فيه شتّى أنواع الحرمان.. تشتهي أصنافاً لا تُعدُّ ولا تُحصى من الطّعام.

مرّت فترة طويلة لم أتذوّق خلالها أيّ نوع من

الحلويات أو الفاكهة فتمنّيت لو يأتونني بقطعة من الحلوى ودعوتُ اللّه بذلك...

وبعد لحظات أتاني الجندي بصحن وضع فيه قطعة من الحلاوة فرماه أمامي ورحل... نظرت إليها فلم أصدّق عيني شعرتُ بالفرح إلاّ أنني ارتبتُ وخفتُ من أن يكون العدو قد وضع جهازاً للتّنصت وأتساءل ما إذا كنتُ دعوتُ سرّاً أم جهراً؟ وهل يمكن أن يكون أحد لحظتها في الممر؟ وتتزاحم الظنون علّي أجد حلاً أو تفسيراً.

وقبل الظهيرة أدعو اللّه جهرةً لأتأكّد من ذلك بأنّني أشتهي التّفاح وتأتي مع الغداء... تفاحتي... فيزيد ارتيابي وخوفي وأعيد الكرّة وأدعو اللّه سرّاً هذه المرّة عند الغروب فيستجيب تعالى لدعائي... عندها أيقنت أن قدرته تعالى وحدها ألهمتهم بوضع هذا الصنف من الطعام سبحانه «يرزق من يشاء بغير حساب...» وتأكّدت من أنّ جميع إيحاءاتي السابقة كانت خاطئة...

..واجتمعت الطيور:

.. وفي يومٍ نفذ فيه صبرُنا وانهار الوضع النّفسي قمنا الثّلاثة فضيلة الشّيخ وهاشم وأنا بمطالبة المحكمة بوضعنا في زنزانة واحدة فرفضت المحكمة بادىء الأمر إلاّ أن إصرارنا دفع بها إلى القبول على مضض وتقرر وضعنا بالمداورة مع سماحته فأجلس أنا مثلاً في الشّهر

الأول وهاشم في الشهر الثاني إلاّ أنّ هذا الوضع لم يستمر أكثر من تسعة أشهر فحالنا كمن يتلاعب بعصفور فيطلق سراحه ثم يعيده إلى غربته مجدّداً وهذه اللعبة الصهيونية زادت نزف الجراح بدل أن تبلسمها فكيف تتصوّر حالنا بعدَ فِراق الشيخ: فؤاد منكسر، وحزنٌ مضاعف وغربة مجددّة...

وعدنا لمطالبة المحكمة من جديد بوضعنا نحن الثلاثة في غرفة واحدة... فخضعت المحكمة وتمّ فتح زنزانتين ووضعنا فيهما وعادت الطيور لتجتمع في عشّها من جديد وتحوك من صبرها والمقاومة جسراً للعبور نحو الهدف المنشود مهما كلّف الثّمن...

طعام أشبه بـ« ... »:

وإذا ما جاء وقتُ الطعام، افترشوا لنا الموائد ما لذّ وطاب!!! ما تستحي أنت برميه للكلاب فكيف بنا نحن؟

بيضة مسلوقة صباحاً كافية لأن تسدّ رمق رجل طوال فترة ما قبل الظهر وعند الظهيرة يأتون بصحنٍ من الأرز ربما وضعوا جانبه قطعة لحم أحياناً كنّا نقوم برميها وتطهير الأرز في الصحن وإمّا معكرونة أو ملفوف مسلوق... أما أيام الأربعاء فكان الغداء عبارة عن حبّة بطاطا مسلوقة.

والعشاء خمسة قرون حرّ أو بيضة مقليّة...

وفي هذه الزنزانة أنت مجبر على تناول كلّ الأنواع حتّى ولو أتوك بالحشيش اليابس لا يمكن أن تتفوّه بحرف واحد.

وفتح قريب:

لم يدُم حالنا على هذا طويلاً وحتى متى نرزح تحت نير الذّل والهوان ألم يأمر تعالى عباده المؤمنين بالجهاد وعدم الرّضوخ...

لذا ابتدأنا بالصّوم الدّائم فكنّا نجمع الطعام طيلة النهار (الفطور والغداء والعشاء) فنأكل قسماً منه عند الإفطار والقسم الآخر نتركه للسحور وبقينا نتّبع هذا النظام حتّى انتقلنا من سجن الصرفند عدا أيّام الأعياد في الفطر والأضحى.

وتتجافى الجنوب عن المضاجع لتبدأ رحلة الشوق الإلهي بإحياء الليل تهجداً وعبادة، نوافل وصلوات... ومناجاة مع الباري.

هذا إضافة إلى ختم القرآن الكريم مرّة كل أسبوع حتّى وصل عدد الختميات إلى ما يفوق المئتي مرّة.

وبصوتٍ شجي تسمو تراتيل دعاء كميل كلّ ليلة جمعة، تأخذك بعيداً عن مرارة الزنازين، وفاتحةٌ ترفرف في فضاء الملكوت نبعث بها لأرواح الشهداء... يتبعها ترانيم صلاة العاشقين... في غسق الليالي.

ودروساً تتهاوى لتجد وقعها في قلوبنا يستهلّها فضيلة الشيخ لتتناول السيرة والفقه والعقيدة والتجويد، تفسير وقرآن... وأحاديث تأخذك في يمّ جراحات أهل البيت «ع» وجهادهم...

من مثلي... وقد منّ اللّه عليه... أنْ سخّره للعبادة بكرة وعشياً... بل وأيّ لسان يفي حقّ الشكر... ولو أدركت أيها العبد لذة الفناء في حبّ اللّه ما التفت.. مهما تزاحمت أشواك الظلم... وفي أيّ مكان كُنْت... لقد كانت هذه الزنزانة بحق محراباً لصلواتنا وانطلاقاً لتزكية النفس والطّاعة المطلقة للّه «عزّ وجلّ». ورغم كلّ الحواجز والمشقّات كانت أنفسنا راضية ومطمئنة «اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك راضية بقضائك، مولعة بذكرك... مشغولة عن الدنيا بحمدك وثنائك...».

في بئر السبع..

كان الثالث عشر من تشرين الأول لعام ١٩٩٤ يوم صدر القرار بفصلنا عن بعضنا بعضاً ونقلنا نحن الإثنان إلى معتقل بئر السّبع مع إبقاء سماحة الشيخ عبد الكريم عبيد في معتقل الصرفند.

كان الوضع مختلفاً كلياً عما هو عليه في معتقل الصرفند والسّجن في بئر السّبع جنّةٌ أمام زنزانتي الأولى... ورغم ذلك الإنفراج الكبير إلاّ أنّ الأسى ظل

يعتصر قلبي منذ اللحظة التي فارقت فيها عمّة الشيخ وأخذت النارُ تستعرُ في شراييني ففي هذه الساعات بالذّات أحسست بلوعة الغربة وطعم العلقم الحقيقي... بمن ألوذ؟ ولمن أبثّ حزني وهمّي؟ وإذا بصوتٍ في أعماقي يؤنّبني أونسيتَ أن اللّه معكم أينما كنتم، بلى... أنت معي مولاي... ومن غيرك يبعث بين كلّ هذه القوّة والصحة والثبات... نِعم الأنيس أنت ونِعم الرفيق في دروبي الوعرة ومسالكي الدامية...

في بئر السبع، إلتقيتُ بحوالي سبعة عشر أسيراً كانوا جميعهم من اللبنانيين وينتمون إلى حزب اللّه... هذا إضافة إلى الكثير من الفلسطينيين الذين كانوا ينتمون إلى كتائب متفرقة وتوزّع السّجن على أسس تنظيمات حزبية ولكلّ تنظيم معاملة معيّنة...

ونتيجة سوء المعاملة التي تعرّضنا لها في هذا المعتقل والجرائم الشنيعة التي كانت تلتهم الأسرى في سائر المعتقلات الإسرائيلية فقد قرر حوالي سبّعة آلاف أسير في كافة المعتقلات، الإضراب عن الطعام لمدّة ١٣ يوماً حتّى لبّى العدو بعض مطالبهم والتي كان منها زيادة وقت الخروج إلى الشّمس وتحسين الطعام، والتعامل مع الأسرى بطريقة إنسانية.

غير أن أبرز الأحداث على الإطلاق والتي بلسمت بعضاً من آلامنا هو الاستجابة لمطالبنا ببعث رسالة إلى

الأهل بعد انقطاعٍ عن الديار دام حوالي خمس سنوات ونصف لم نعرف خلالها عن العالم ولو ذرّة من المعلومات... حتّى أنّ معظمهم كان يشكّ في بقائنا على قيد الحياة لولا التفاؤل والأمل بمعرفة أخبارنا وأحوالنا وردّ الصليب الأحمر برسالة عاجلة من الأهل تحوي العديد من الصّور لهم ولأبناء الشّيخ... وكم كانت فرحتنا عظيمة بهذه الصّور فكأنما زغرد الحنين فينا مرّة أخرى للحياة ودبت الروح في أجسادنا بعدما كادت تموت خلايا الآمال... وكم كانت أحلامنا.. أضغاث أحلام... تختنق بين ليت ولعلّ فتموت قبل أن تخرج من وراء القضبان.

استمرت هذه الرسائل تروح وتجيء مع الصليب الأحمر حوالي سّبعة أشهر تُطمئن عن الأهل في الأوطان... حتّى انتقم العدو يوماً... فقام بتمزيق جميع الرسائل التي تصل متجاهلاً وقوعها بين يديه فعدنا بذلك إلى مرحلة الانقطاع السابق حتّى السّادس من شباط لعام ١٩٩٦ تاريخ نقلنا إلى معتقل آشموريت في كفريونا.

قبسات إلى الأحبّة:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

﴿يا أيّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا اللّه لعلّكم تفلحون﴾ صدق اللّه العظيم، بسم اللّه كلمة المعتصمين ومقالة المتحرزين وأفضل الصّلاة والسّلام

على المبعوث رحمةً للعالمين سيّدنا محمد وعلى آله الطّيبين الطاهرين وصحبه الأخيار ومن سار على هداهم إلى يوم الدّين.

أهلي الأحبّاء الأعزاء، أبي الحبيب، أمّي الحنونة الغالية، اخوتي الأحبّاء أحييكم بتحيّة الإسلام العظيم فالسّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

تحيّة طيّبة عطرة، تحيّة من القلب إلى القلب ومن الرّوح إلى الرّوح، تحيّة طيّبة ملؤها الحبّ والشّوق والحنين، تحيّة الفراق الذي ينتظر اللقاء وتحيّة الأمل وهو يعانق الحريّة... وتحيّة الأحبّاء الأعزاء.

أهلي الأحباء... شدّة القهر وعظيم الكرب والمعاناة، لم تنسني ولو للحظة واحدة أحبائي الذين يتربّعون على عرش القلب ويحتلّون محتويات الذاكرة ماذا أقول لكم يا أحبّائي وكيف أصف حبّي لمشاهدة وجوهكم الطيّبة النيّرة الطاهرة وحرارة الشوق لرؤيتكم الغالية.

أمّي الحبيبة الغالية على قلبي وروحي وعقلي، أبي الحبيب، اسمحوا لي أن أتقدّم منكم وأقبّل وجوهكم الطّاهرة الطيّبة وأسألكم الدعاء والرضا فكيف حالكم وصحتكم إن شاء اللّه تكونوا بتمام الصحّة وكمال العافية، هذاما أتمناه لكم من اللّه سبحانه وتعالى على الدّوام.

والدتي الحنونة يا بحر العطاء ونبع المحبّة وجداول

العشق ومجاري الخير الأم هي مجمع كل ما في الدنيا من جمال... هي المطر الذي يروي العطش أنتِ ربيعي وأنا الصيف الذي تتفتح بحبكِ وروده.

فأنتِ حياتي المزدهرة الخلاقة، أنتِ كلّ شيء في حياتي حتّى أنكِ تسيطرين على كلُّ ذرة من ذرّات فكري أنتِ كالشمس في ليلي والنجم المعلّم أسير عليه في دربي.

لا أستطيع إلاّ أن أقول لكِ: أحبّك فهذه الكلمة لا يعرف معناها سواكِ، ولا يقدّر ثمنها غيرك، فيك الحبّ ومنكِ وإليكِ وأسأل اللّه لكِ الصحّة والعافية وطول العمر والسّلام والتحيّة فأنا بخير والحمد للّه وأسألكِ الرضا لي والدعاء بالتوفيق فإنّ دعاءكِ يخترق الحجب ويصلِ إلى الرّحمن والسّلام عليكِ.

أختي الحبيبة الطاهرة الطيبة، تحيّاتي وأشواقي وقبلاتي وحبّي المنبعث من صميم القلب الذي ينبض للقائكم ودعائي لكِ بالصحّة والعافية والتوفيق في عملكِ والعيش السّعيد.

أكتب إليكم هذه الرّسالة لمزيد من الاطمئنان عنكم... راجياً من اللّه سبحانه وتعالى أن تكونوا بخير وعافية وأن تحطّ رسالتي هذه بين أيديكم وأنتم بألف خير وراحة بال مع أملي أن تنزل رسالتي هذه منزلة الرضا في قلوبكم ونفوسِكم أخبروني... عن جبشيت الحبيبة وما يحدث فيها من تدمير وإصلاح في الأخلاق والإلتزام

وكيف أصبح البناء فيها... اشرحوا لي كلّ شيء عنها لأنّي مشتاق إلى سماع كلّ صغيرة وكبيرة وبالتفصيل علّها تسدّ ذاك الفراغ المزعج والبعد القاتل عنكم وعن رؤيتكم وعن أرضكم وديارکم التي أنتم فيها الآن.

وأمّا إذا سألتم عن الأحوال والأخبار فإنني وبحمد اللّه رب العالمين بألفِ خير ولا ينقصنا سوى رؤياكم، أمضي حياتي على الانتظار الذي يدفعني إليه الأمل بفرج اللّه الذي لا ينسى عباده في نكباتهم ومحنتهم ليأتي فرجه الموجود كالغيث المنصبّ من السّماء إلى الأرض فإليه وحده نشكو الحال فإنّه حسبنا ونِعم الوكيل.

وفي نهاية الحديث أرجو منكم كما في كلّ رسالة أن لا تنسونا... من دعائكم الدائم في صلاتكم في ليلكم ونهاركم. وأخيراً سلامي إلى جميع الأخوة والأخوات دون استثناء.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين

أستودعكم اللّه الذي لا يخون الودائع

ولدكم المشتاق والداعي لكم بطول العمر

أحمد أبو هادي...

آشموريت... وتحطمت القيود:

في «آشموريت» بدأت أسطورتهم تنهار في الظلمات «أفمن أسس بنيانه على تقوى من اللّه ورضوانه خيرٌ أم

من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم واللّه لا يهدي القوم الظالمين».

في هذا السّجن تهاوت القيود واشتبكت الأيدي لِتعلن المواجهات الجماعية بعد اضطراد المظالم وتفاقمها وبعد منع الأسرى من المواصلات مع الصليب الأحمر أو حتّى المحادثة مع أحد... فتتّحد النفوس معلنةً إضراباتها المستمرة والوقوف في وجه الأعداء وإذلالهم وتحطيم جبروتهم هذا...

فمن عادة ضابط العدد أن يدخل إحدى غرف السّجن وعلى الجميع أن يقف احتراماً... من هذه النقطة انطلقوا، وإذا ما حلا للضابط الدخول إنشغل الجميع عنه، مختزلينه في زاوية الوهن والإزدراء ولم تستمر الحال طويلاً إذ سرعان ما تم نقلنا بعد حوالي ستّة أشهر إلى معتقل آيلون (الرملة)...

في آيلون:

لم يشهد معتقل آيلون ما شهده غيره من السّجون ولم يتطلّب تِلك القوّة النفسية والروحية كما سواه، لا سيّما بعد أن أدرك العدو تلك المعاناة معنا والدرجات الرفيعة من الصّمود والثبات رغم كلّ الطعنات فجعلنا في عِداد الرهائن الجاهلة لمصيرها...

وبدأت تجتاحنا أوقات الفراغ... فطالبنا ببعض

الأدوات لتنفيذ الأشغال اليدويّة ولبّوا طلبنا... فنجمع من حبات الزيتون بذورها ونصنعها سبحات، وصنع المجسمات (مجسّم القدس) والحفر على الأحجار والرسم على القماش،... علب محارم من الكرتون، مزهريات من الكرتون وبراويز مطرزة الكرتون... كلّها أشغال كنّا نبعث بها إلى الأهل كهدايا رمزية مع الرسائل.

وانكسرَ القيد...

على لوعة الجمر انتظرت... أسرج قناديل الليل... أنواراً لحلمٍ غاب وعلى مفارق الزمن... ارتشفت العذابات... ولملمت جراحاتي عند ذاك الفجر، مع ضحى جديد... وشمسٍ أخذت تعبّد الطرق نحو الحريّة صباح يوم الأحد ٢٦ ـ ١٢ ـ ١٩٩٩ كانت السّاعة تشير إلى العاشرة والخمسون دقيقة حين دخل الضابط العسكري للعدّ كما هو معروف صبيحة كلّ يوم. فيحمل كلّ منا بطاقته عندما يسمع اسمه ويتقدّم تجاه الظابط ثم يتنحّى جانباً، هذه المرّة كان يحمل الضابط العسكري معه خبراً هاماً «خمسة أشخاص للإفراج كنتُ من بينهم».

للوهلة الأولى استنكر الجميع... فقد عهدنا منهم الخيانة والمراوغات والكذب غير أن تشبث الضابط بكلامه وتهديده إيّانا بـ«شحطنا» إن لم نكن جاهزين عند تمام الحادية عشرة دفع بنا نحن الخمسة:

هاشم فحص، أحمد سرور، كمال رزق، حسين طليس وأنا، إلى تجهيز أغراضنا وبدأنا بتوديع الأحبّة وأخذت الدموع مجراها فحفرت على الوجنات أخاديد تضمّنت كل غصّات الدهر في لحظة من لحظات العمر، وكلّ منهم يحمّل سلاماً إلى ربوع الأوطان... أهلاً وأحباباً...

ويبقى الإرتياب سيّد الموقف والشكّ في إطلاق سراحنا يراود الجميع حتّى اللحظة الأخيرة... ومنذ متى وفوا بوعودهم إنها تكتياتهم المعهودة وحربهم النفسيّة عادة ما تكون جوهر عملهم السياسي.

دقّت الساعة الحادية عشرة حين جاء لاصطحابنا من السّجن عدد من الجنود إلى غرفة الإدارة.

فدخلت الغرفة وإذا بجمع هائل من أفراد وزارة الدفاع الإسرائيلية مع عدد كبير من الصحافيين والمصوّرين.

يتقدم أحدهم ويأمرني بالتوقيع على ورقة تتضمن تأكيد خروجي من السّجن في ذاك اليوم ودخولي الأراضي الألمانية.

فأجبته: ومن الذي يؤكدّ لي بأنّكم لن تصطحبونني للقتل أو رميي في سجن آخر.

قال بنبرة غاضبة: وهل تعتقد الوقت مناسباً للمزاح.

قلتُ: ومن قال أنّي أمازحكم وعلى جميع الأحوال سوف أوقّع وشو فيي إعمل معكُنْ».

ثم وقّعْتُ وخرجتُ من غرفة الإدارة إلى باحة السجن فبادرني أحدهم: ماذا يريدون منّا.

قلتُ لا أدري إلى أين يذهبون بنا، إمّا للقتل أو لعِزلنا في سجن آخر، قلتُ هذا وكلّي يقين.

وعند السّاعة الواحدة ظهراً تم نقلنا بواسطة سيارات مغلقة إلى المطار العسكري حيث تم نقلنا بواسطة طائرة خاصة برئيس الوزراء بعد أن مُنِعْنا من الكلام مطلقاً حتّى وصولنا إلى المطار الألماني. وبسبب سوء حال الطقس فقد أخذ وصول الطائرة حوالي ست ساعات في المطار الألماني كان حشدٌ كبيرٌ من الشرطة الألمانية والموساد الإسرائيلي فانتظرنا حوالي السّاعة والنصف حتّى يحين موعد الطائرة إلى لبنان في الساعة الثانية عشرة ليلاً.

كانت الطائرة مليئة بالمدنيين حيث تم حجز المقاعد الخلفية واحتلّ كلّ مِنّا مكانه.

وتمخر أفكاري مع الطائرة العُبَابَ وتتلاطم كموج البحار... تُرى هل سيعرفني الأهل بعد كلّ هذه السّنين؟ ومن سيفتح الباب في وجهي؟... وكيف ستكون المفاجأة؟ هل سيصدّق ما تراه عيناه... وتتصارع الإجابات فتخمدها المفاجأة على المدخل الرئيسي لمطار بيروت: حرسُ الشّرف ونائب الأمين العام سماحة الشيخ نعيم قاسم، سياسيون، أحزاب وقوى عسكرية ومدنية، الأهل

والأصحاب جميعهم كانوا بالإنتظار يحتسبون الثواني وعيونهم تلتهف ليرى كلّ حبيب حبيبه بعد طولِ غياب ويطبع على خدّيه قبلة اللقاء...

وتنهمر الدموع لِتمزج أسى الماضي بفرحة اليوم...

في تموز «شبّ لظى القيد» وفي كانون «انكسر القيد» وما بين تموّز وكانون حكاية مجدٍ لا تنتهي.

الطيّبون للطيّبات:

وربّما كان الأسرى للأسيرات... وهكذا التقى الجمعان

بسم اللَّه الرّحمن الرحيم

﴿وخلقنا لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعلنا بينكم مودّة ورحمة﴾.

وقضي القضاء... فاسترسل القدر في حبكِ القفص الذهبي... وأخذ يهيّىء لهما دورب الحياة...

ففي زيارة تكريميّة للأسرى نظمت إلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية التقى أحمد بأسمهان خليل وخفق القلبان...

أسمهان خليل كانتِ الأسيرة في معقلِ الخيام والتي كابدت وعانت حوالي تسعة أشهر إلى أن حررت مع الأرضِ في أيّار...

ومضوا سوياً يداوون الجراح... معاً، عبروا طريق الجهاد وما زالوا في مهد المقاومة ريثما تحقق رايات اللَّه

على كلّ الرّبى... وتشرق الأرض بنور ربّها... مع خروج قائم آل محمّد (عج).

مَنْ أنتم...

من أنتم؟... وفي أيّةِ طينةٍ جُبِلْتم؟

ما الذي جعل المجد يستسقي من أريج صمودكم عبير الانتصار؟

من الذي قلّدكم ذاك الوسام الرفيع، فشمختكم على أعلى الأوطاد؟

وفي أيّ كأسٍ تجرّعتم الصّبر حتّى قطعتم كلّ هذه المسافات؟

وأيّ لغةٍ هي لغتكم؟ أم أنّ مثلي لا يفقه لغة الرّجال؟

أستميحكم عذراً من كثرة السؤال، ففيكم حارت الألباب، كيف لا... وقد ركع الدّهر عند أقدامكم، وانحنت القضبان لنضالكم، وتزلزلت الجبابرة على أعتابكم...

من سنى فجركم كان النّهار... ومن لظى أسركم تعلّمنا كل الأسرار، أسرار العشق والانتصار... فلا ريب...

إن وجدت فيكم تِبرَ الزّمان، والعرين تتخرّج منه الأسود والأبطال وجدت فيكم اللغز المدفون في لجج البحار...

وجدت فيكم...

وأرى يراعي عاجزاً عن خطّ المزيد...